مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية
مجلد 40- عدد 1 (2024): 69-94

Damascus University Journal of arts and humanities sciences Vol 40No.1 (2024):69-94

قيمة (المأساوي) في مختارات من شعر رثاء المدن في العصر العباسي

د. لميس عبد العزيز داود

1- أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية ، جامعة دمشق (اختصاص الأدب العباسي).
Lamis7.dawd@damascusuniversity.edu.sy

الملخص:

لقد ركزت معظم الدراسات على (أدب رثاء الممالك في الشعر الأندلسي)، ولم تتناول موضوع رثاء المدن في الشعر العباسي بدراسة مستقلة يعتد بها، وهذا ما دفع الباحث إلى التركيز على هذا الجانب، مع إسقاط بعض المفاهيم الحديثة من علم الجمال (قيمة المأساوي)، وشعر رثاء المدن في العصر العباسي هو شعر يهدف إلى تصوير نكبة العباسيين، بفقدان أجزاء من بلادهم، أو بخرابها واستباحتها نتيجة الاقتتال بين فئتين متحاربتين، أو بسقوطها في فتن وحروب داخلية دامية، استبيحت فيها الأعراض وانتهكت الحرمات وهدمت البيوت، وخرب العمران، وسالت الدماء. وفي الحقيقة إن موت الجميل الذي نحبه ونجله، وعذاب الإنسان وهلاكه، ومجابهة القبح والتفاهة، كل هذه المعاني تجلى من خلالها مفهوم المأساوي (جماليا) في شعر رثاء المدن في العصر العباسي. اتجه البحث إلى دراسة البناء الفكري لشعر رثاء المدن في العصر العباسي مركزا على المجاور الآتية: 1- مأساة الخراب والدمار والموت، 2- ومأساة تفكك الأواصر الاجتماعية والحضارية، 3- ومأساة العذاب والهوان والذل، كما درس في البناء الفني: تماسك النسق البنائي والدقة والوضوح، والتشخيص والتجسيم والتشبيه، والخطابية، والاتجاه إلى الشعبية في شعر المقطعات، ثم درس وظائف شعر رثاء المدن في العصر العباسي ،وأهمها: الحث على النهوض والبناء واصلاح ما فسد ، التنفيس والتطهير، إثارة التفكير والتأمل، الوظيفة الجمالية، وانتهى إلى مجموعة من النتائج، أهمها:

تجلت قيمة (المأساوي) واضحة في شعر رثاء المدن في العصر العباسي؛ فقد عبر هؤلاء الشعراء عن النكبات التي حلت بمدنهم: بغداد، والبصرة، والقدس .. تعبيرا صادقا، يفيض بنغمات الأسى، والتفجع، والتحسر.-عمد الشعراء إلى النقد، وأخذوا يضمنون قصائدهم نقدا لاذعا للأوضاع السياسية والأحوال الاجتماعية المتهاوية،- جاءت القصائد في رثاء المدن، في عمومها، محكمة النسيج قوية التعبير، بكائية تظهر فيها الحسرة والتوجع على حال الأمة، مع نزعة إيجابية واضحة لتغيير الواقع السيئ، وهي في معظمها قصائد طويلة مستقلة الغرض، أما المقطعات فكانت أقل، واتسمت بالطابع الشعبي وبالبساطة في التعبير.

الكلمات المفتاحية:

رثاء المدن، الشعر العباسي، قيمة (المأساوي)، تجليات المأساوي، الوظائف.

تاريخ الايداع2022/12/20
تاريخ القبول2023/02/27

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

The Tragic value in an anthology of lament poetry of cities in the Abbasid era

Dr. Lames AbdulAzeez Dawod[1]

1- assistant professor in damascus university.

Abstract:

Most studies have focused on the elegies of the kingdoms in Andalusian poetry, but it did not study the subject of lamenting cities in the Abbasid poetry. This prompted the researcher to focus on this aspect. Dropping some modern concepts of aesthetics (tragic value). He defined the term tragic and extracted from these definitions the model through which the concept of the tragic was manifested in the poetry of lamenting cities.

Then he studied the intellectual structure, which includes: the tragedy of ruin, destruction and death, and the tragedy of the disintegration of social and cultural bonds, and the tragedy of torment, humiliation. And humilia. And make the study of technical construction included in the intellectual construction.

Then he studied the functions of city lament poetry in the Abbasid era and ended up with a set of results: The most important of them: the value of the tragic was evident in the poetry of lamenting the cities in the Abbasid era; because these poets expressed the catastrophes that befell their cities: Baghdad, Basra, and Jerusalem in a sincere expression that overflows with tones of sorrow, grief and regret.

Poets deliberately criticized and took to include their poems with stinging criticism of the political and deteriorating social condition.

The poems came in lamenting cities, in general, courteous textures with strong expression, weeping in which the heartbreak and pain over the state of the nation appear, with a clear positive tendency to change the bad reality. Most of them are long poems, independent of purpose, while the syllables were less, and they were characterized by a popular character and simplicity in expression.

Key words: lament Poetry – Abbasid Poetry- Tragic Value – Tragic Manifest.

Received: 20/12/2022
Accepted: 27/02/2023

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

لقد ركزت معظم الدراسات على (أدب رثاء الممالك في الشعر الأندلسي)، ولم تتناول موضوع رثاء المدن في الشعر العباسي بدراسة مستقلة[1]، وهذا ما دفع الباحث إلى التركيز على هذا الجانب، مع إسقاط بعض المفاهيم الحديثة (علم الجمال / قيمة المأساوي).ويرى د. مصطفى الشكعة أن استعراض شعر النكبات قبل العصر العباسي ينتهي بنا إلى حقيقة مفادها أن أدب نكبات الممالك والأقوام غرض قديم عرفه الشعر العربي منذ العصر الجاهلي، أما أدب نكبات المدن فهو ضرب جديد لم يعرفه الأدب العربي في العصر الجاهلي أو الإسلامي والأموي، باستثناء إرهاصات لا ترقى إلى مستوى الاستقلال بنفسها ضمن إطار غرض شعري متميز جديد[2]، وهو ما تشير إليه آراء د. ضيف ود. هدارة..[3]

المنهج:

اعتمد البحث أكثر ما اعتمد على (المنهج الوصفي التحليلي والاستقرائي) إذ عمل في البداية على استقراء النصوص التي تنتمي إلى هذا النوع الأدبي دون غيرها، ثم قام بتحليل هذه الشواهد فكريا وفنيا، للوصول إلى النتائج المرجوة من الدراسة.

واستعان بالأسلوبية للإجابة عن أسئلة كثيرة تثيرها بنية النص، من خلال البحث عن الأسس التي ترتكز إليها جمالية الشكل الفني، عبر الثنائي والمتضاد والمتقابل بأشكاله المختلفة ضمن البنى الفنية المتجاورة في النص.

كما أفاد من معطيات (المنهج الواقعي) لربط القيم الجمالية في النص بالظرف التاريخي والسياسي والاجتماعي الذي ولدت فيه، فشعر (رثاء المدن) يعكس لنا – بصدق– أحداث العصر وفتنته الناتجة عن تقلبات السياسة وأهوائها.

رثاء المدن:

رثاء المدن هو البكاء على المدن التي فقدت بأهلها، وعمرانها وحضارتها، وقد عرف الأدب العربي رثاء المدن غرضا أدبيا في شعره ونثره، وهو لون من التعبير يعكس طبيعة التقلبات السياسية التي تجتاح عصور الحكم في مراحل مختلفة[4].

وشعر رثاء المدن في العصر العباسي هو شعر يهدف إلى تصوير نكبة العباسيين، بفقدان أجزاء من بلادهم، أو بخرابها واستباحتها نتيجة الاقتتال بين فئتين متحاربتين، أو بسقوطها في فتن وحروب داخلية دامية، استبيحت فيها الأعراض وانتهكت الحرمات وهدمت البيوت، وخرب العمران، وسالت الدماء[5].

ويتبنى عز الدين إسماعيل موقفا واضحا من أدب نكبات المدن يتجلى بقوله: "وهكذا برز في العصر العباسي إطار جديد للرثاء، هو رثاء المدن، وقد كان جديدا بكل معاني الكلمة؛ إذ إن علاقة الإنسان بالمدينة من قبل لم تتوطد بالشكل الذي توطدت به في العصر العباسي هذا من جهة، ومن جهة أخرى لم تشهد المدن الإسلامية قبل هذا العصر من الدمار والتخريب ما شهدته بعض مدن العراق في هذا العصر"[6]، ويرى أن هذا الإطار للرثاء –بعيدا عن الشخوص الآدميين– هو إطار جديد في العصر العباسي لأسباب تتعلق بالنقلة الحضارية[7].

مفهوم (المأساوي):

المأساوي أو (التراجيدي) من القيم الجمالية الأساسية[8].

---

[1] ثمة نظرات ولمحات سريعة إلى هذا الموضوع في الكتب والدراسات، مثل اتجاهات الشعر العربي في القرن 2هـ، د. محمد مصطفى هدارة ص 44، الشعر والشعراء في العصر العباسي، د. مصطفى الشكعة ص 533، والرثاء د. شوقي ضيف ص47. كما درست الباحثة (سهام صغيري) قصيدة (رثاء بغداد) للخريمي دراسة فنية ، تختلف عن الوجهة التي اتخذناها في الدراسة /انظر : بكاء الأوطان في قصيدة (رثاء بغداد) للخريمي (رسالة ماجستير) الجزائر ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، 2016م.

[2] ينظر الشعر والشعراء في العصر العباسي، ص 533، 534.

[3] وانظر: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، د. محمد مصطفى هدارة، ص 197، 198، ص 444، والرثاء، د. شوقي ضيف، ص 40 – 49، وأطلق د. ضيف على هذه الظاهرة اسم (ندب البلدان).

[4] ينظر : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، عبد الله محمد الزيات، ص83–84 .

[5] ينظر: أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس، د. محمد رضوان الداية، ص 80 – 82.

[6] في الأدب العباسي، الرؤية والفن، د. عز الدين إسماعيل، ص 366.

[7] المرجع السابق، ص 365.

[8] ينظر: علم الجمال، بلوز، ص 102.

ويعرف أرسطو المأساة بأنها محاكاة الأفعال النبيلة الكاملة، وأن لها طولا معلوما، وتؤدى بلغة ذات ألوان من الزينة تختلف باختلاف أجزاء المأساة، وتتم هذه المحاكاة بوساطة أشخاص يمثلونها وليس بوساطة الحكاية، وهي تثير في نفوس المتفرجين الرعب والرأفة وبهذا تؤدي إلى التطهير (تطهير النفوس) من أدران انفعالاتها[1].

وفي العصر الحديث رأى (كانط) في المأساة صميم الحياة الإنسانية الروحية، بل صميم الوجود، فالحياة "مأساوية في جوهرها، لأن التناقض بين الحرية والطبيعة مطلق لا حل له"[2].

وعد (تشيرنيشفسكي) المأساوي نوعا من أنواع الجليل[3]. ونجد لديه تعريفين للمأساوي، الأول "هو عذاب الإنسان، أو هلاكه"[4] والمأساوي في التعريف الثاني هو "المرعب في الحياة الإنسانية"[5].

ويرى د. سعد الدين كليب أن المأساوي لا يكون مأساويا من غير وجود الصراع، فموت إنسان نحبه، أمر مفجع ومرعب، غير أنه لا يعد (تراجيديا) إلا إذا تم من خلال الصراع، الذي يحيل إلى صراع المثل الأعلى مثل القبح والتفاهة[6]، فالمأساوي يقوم على الصراع بين القبح والجمال، والتفاهة والجلال.

ويرى د. نايف بلوز أن التراجيديا "جدية جدا وتنتهي نهاية محزنة وغالبا ما تتجسد النهاية بالموت الجليل، إلا أنها لا تولد لدى المتلقي شعور الألم والخوف والحزن الحقيقي بل تحركه، تهزه، وتعمق وعيه، وتنقي عواطفه"[7].

كما يرى أن الموت في الصراع مع الطبيعة أو من أجل قضية إنسانية أو اجتماعية أو قومية يعد مأساويا لأن المثل الأعلى قد دحر بهذا الموت[8].

وثمة تداخل بين مفهوم الجليل ومفهوم المأساوي، كما يرى د. فؤاد المرعي ولكن ليس في جميع الحالات، لأن التراجيدي ظاهرة اجتماعية، وعندما يتعلق الأمر بالطبيعة لا يتحقق هذا التداخل[9].

وفي الحقيقة إن موت الجميل الذي نحبه ونجله، وعذاب الإنسان وهلاكه، ومجابهة القبح والتفاهة، كل هذه المعاني تجلى من خلالها مفهوم المأساوي في شعر رثاء المدن في العصر العباسي.

ومن الجدير بالذكر أن المأساوي الذي تجلى في هذا النوع من الرثاء (مأساوي غنائي) كما يسميه د. سعد الدين كليب، وفيه ملامح كثيرة من (المأساوي الدرامي) أيضا، بالمعنى الأرسطي، كما سنرى في هذه الدراسة.

تجليات المأساوي في شعر رثاء المدن في العصر العباسي:

تجلت قيمة المأساوي واضحة في شعر (رثاء المدن) في العصر العباسي؛ فقد عبر هؤلاء الشعراء عن النكبات التي حلت بمدنهم: بغداد، والبصرة، والقدس[10] تعبيرا صادقا، يفيض بنغمات الأسى والتفجع، والتحسر .. هذا، وقد اقتصر البحث على مختارات من شعر رثاء المدن في العصر العباسي، لابن الرومي والخريمي والوراق والأبيوردي، وبعض المقطعات؛ لأن المجال يضيق عن ذكر كل ما قيل في هذا الموضوع، وحرص على أن تكون هذه العينة المختارة ممثلة لأبرز الخصائص الفكرية والفنية لهذا الشعر.

---

[1] انظر: موسوعة المصطلح النقدي، مجموعة من المؤلفين، 1/ 37، والبناء الدرامي للمأساة عند أرسطو، سيد حامد النساج، ص 40.
[2] علم الجمال، بلوز، ص 102.
[3] ينظر: علاقات الفن الجمالية بالواقع، تشيرنيشفسكي، ص 38.
[4] المرجع السابق ، ص 53.
[5] نفسه، ص53.
[6] ينظر: القيم الجمالية في الشعر العربي الحديث، ص 233.
[7] علم الجمال، ص 102.
[8] المرجع السابق، ص 103.
[9] ينظر: الجمال والجلال، د. فؤاد المرعي، ص 116.
[10] هذا، ولم يتناول الباحث رثاء بغداد إثر سقوطها بيد المغول 656هـ بالبحث والدراسة، كقصائد شمس الدين الكوفي ت(675هـ)، في رثاء بغداد، وعلي بن عبد الله الغزولي البهائي الدمشقي (ت815هـ) في رثاء دمشق، لأنه اقتصر على شعر العصر العباسي، وهذه القصائد قيلت بعد سقوط الدولة العباسية.

1- مأساة الخراب والدمار والموت:

صور الشعراء في هذا النوع من المآسي تجربة خراب المدن العباسية ودمارها، فرسموا مشاهد مؤثرة للخراب والويلات التي تتركها الحرب، والحرب هي "استمرار للعملية السياسية بطرق أخرى، بمعنى آخر هي إدارة للسياسة بطرق غير الطرق الدبلوماسية والمدنية، إذ تعتمد الطرق الأكثر عنفا مثل المعارك والحروب، واستعمال الآلات الفتاكة والأسلحة المدمرة، واحتلال الأراضي والبلدان، وصولا إلى قتل الإنسان وتدمير ما بناه من حضارة"[1].

ومن المعلوم أن الحروب والصراعات تؤثر في الإنسان والمجتمع لما تخلفه من دمار وخراب عمراني واقتصادي، وأذى نفسي يصيب الإنسان الذي فقد أحبابه وأعزاءه .. وقد أبدع الشعراء في العصر العباسي في التعبير عن هذه المأساة، كما عبروا بصدق عن المشاعر والأحاسيس الإنسانية المكلومة بسبب هذه الحروب التي وقفت سدا منيعا في وجه أفراحهم وآمالهم وتطلعاتهم المستقبلية وأفقدتهم أعز ما يملكون.

وتروي مصادر التاريخ والأدب أن (البصرة) نكبت في عهد الخليفة المعتمد (256- 279هـ) على يد علي ابن محمد صاحب ثورة الزنج[2]، الذي ادعى النسب إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وقد انقض عليها في شوال سنة 258هـ من ثلاث جهات، معملا فيها النهب والسلب والقتل واشعال النار، يقول المسعودي:

"واختفى كثير من الناس في الدور والآبار، فكانوا يظهرون بالليل، فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها، والفئران والسنانير، فأفنوها حتى لم يقدروا منها على شيء، فكانوا إذا مات منهم الواحد أكلوه، وعدموا مع ذلك الماء العذب"[3] وقد بلغ عدد القتلى ثلاثمئة ألف بين ذكر وأنثى وشيخ وطفل، كما أحرق المسجد الجامع وأحيلت البلدة أنقاضا[4] فرثاها (ابن الرومي) بقصيدة تعد من أجمل ما قيل في رثاء البلدان وتقوم القصيدة على لوحات عدة، وصف في مطلع القصيدة حالته النفسية إثر ما حل بالبصرة فقال:

ذاد عن مقلتي لذيذ المنام	شغلها عنه بالدموع السجام
أي نوم من بعد ما حل بالب	صرة من تلكم الهنات العظام؟
أي نوم من بعد ما انتهك الز	نج جهارا محارم الإسلام؟
إن هذا من الأمور لأمر	كاد أن لا يقوم في الأوهام
أقدم الخائن اللعين عليها	وعلى الله أيما إقدام[5]

لقد أصيب شاعرنا بحالة من الأرق والعذاب النفسي المتواصل، فكيف يذوق طعم النوم والسكينة وقد حل بمدينته الحبيبة (البصرة) ما حل؟ إنها مأساة مروعة، إذ انتهكت محارم هذه المدينة، وأبيحت من قبل الزنج، الذين ادعوا أنهم يثورون على الظلم، فإذا هم أهل الظلم والبطش والاعتداء.

ويلحظ أن غلبة ظاهرة الحزن دفعت الشاعر إلى افتتاح قصيدته بالتفجع والبكاء وليس ذلك على غرض الرثاء بجديد، "فالرثاء في كل أنواعه يصدر بالبكاء، بكاء العزيز الذي يرحل، والوطن الذي يسلب، والملك الذي يطوح به. إنه في النهاية بكاء الإنسانية عجزها أمام تصرف القضاء وتقلب الدهر"[6].

وتقوم اللوحة الثانية على مدح البصرة وبيان عظم شأنها في نفسه وتلهفه عليها:

---

[1] أزمة حيادية الأدب في زمن الحروب، سركوت حسين (مقال)، ص 12.
[2] مروج الذهب للمسعودي، 4/ 186.
[3] المصدر السابق ، 4/ 193، وانظر: ظهر الإسلام، أحمد أمين، 4/ 135.
[4] ينظر: تاريخ الطبري 9/ 416 – 486.
[5] ديوان ابن الرومي، تحقيق د. حسين نصار، 6/ 2377، وقد امتدت هذه القصيدة من ص 2377 – 2382.
[6] رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي، د. مهجة الباشا، ص259.

لهف نفسي عليك أيتها البصـ رة لهفا كمثل لفح الضرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ رات لهفا يعضني إبهامي
لهف نفسي يا قبة الإسـ لام لهفا يطول منه غرامي[1]

تعود الذكريات بشاعرنا إلى حالها قبل هذه المصيبة العامة، فقد كانت هذه المدينة موئلا للعلم والحضارة ومصدرا للخيرات، ومصدر عز وفخر لأهلها .. وما أجمل تركيب (لهف نفسي) الذي كرره الشاعر ثلاث مرات، كما كرر لفظة (لهفا) ثلاث مرات أيضا، ليعبر عن مدى أسفه وتحرقه لما حل بحبيبته (البصرة)، ومن المعلوم أن صوت حرف (الهاء) مهموس رخو، وهو "أقدر الأصوات على التعبير، إيحاء، عن مشاعر اليأس والأسى والشجن"[2].

كما أن صوت حرف (الفاء) مهموس رخو، وهو "بحفيف صوته الرقيق وبعثرة النفس لدى خروجه من بين الأسنان العليا وطرف الشفة السفلى، يوحي بملمس مخملي دافئ، كما يوحي بالبعثرة والتشتت، لتكون الخصائص الصوتية لهذا الحرف موزعة بين اللمسي والبصري"[3].

ونلحظ تكراره النداء ثلاث مرات، مضفيا في كل مرة وصفا جديدا للبصرة: (يا معدن الخيرات، يا قبة الإسلام)، وقد عززت هذه الصور الفنية مكانة البصرة وعزتها قبل نكبتها.

ثم يعود للزمن الحاضر، ليصف لنا مشاهد حية مما يحدث: (اللوحة الثالثة)

بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام
طلعوا بالمهندات جهرا فألقت حملها الحاملات قبل التمام
أي هول رأوا بهم أي هول حق منه تشيب رأس الغلام
إذ رموهم بنارهم من يمين وشمال وخلفهم وأمام
كم أغصوا من شارب بشراب كم أغصوا من طاعم بطعام؟
كم ضنين بنفسه رام منجى فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ترب الخد بين صرعى كرام؟
كم أب قد رأى عزيز بنيه وهو يعلى بصارم صمصام؟
كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر فضحوها جهرا بغير اكتتام؟
من رآهن في المساق سبايا داميات الوجوه للأقدام
من رآهن في المقاسم وسط الز زنج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهن يتخذن إماء بعد ملك الإماء والخدام[4]

لقد دخل هؤلاء المجرمين البصرة على حين غرة من أهلها، فغص الشارب بشرابه، والآكل بطعامه، وبلغت المأساة المروعة من الفظاعة أن أخذ المرء يجري ويتخبط، تاركا شقيقه أو والده أو ولده يتخبط بدمائه، فلا يستطيع أن يصنع له شيئا .. ومما يؤكد أن ثورة هؤلاء الزنج لم تكن محقة في مطالبها وشعورها

[1] ديوان ابن الرومي، 6/ 2377، 2378.
[2] خصائص الحروف العربية ومعانيها، حسن عباس، ص 194.
[3] المرجع نفسه ، ص 132.
[4] ديوان ابن الرومي، 6/ 2378، 2379، اصطلمهم الدهر أو الموت أو العدو: استأصلهم وأبادهم. صمصام: السيف الصلب القاطع. رجل صمصام: مصمم، ماض في الأمر بعزيمة ثابتة.

بالظلم، أن كل أنواع الظلم والبطش والوحشية صدرت عنها. فحتى براءة الطفولة، وطهارة العذارى لم تسلما منهم، فكان الرضيع يفطم عن والدته بحد السيف، وكانت الفتاة الحرة الكريمة تسبى وتنتهك حرمتها.

إنها لمشاهد مفزعة رهيبة تقشعر منها الأبدان ويقف الإنسان أمامها مروعا مذهولا .. ويتبدى شجوه وألمه متعاظما متأججا في تكراره تركيب (أي هول)، وتركيب (من رآهن)، كما كرر (كم) الخبرية التكثيرية 6 مرات، ليعبر عن عظم الهول الذي أصاب أهل البصرة فردا فردا، فلم يترك طفلا ولا امرأة ولا شيخا .. كما أفاد تكرار كم في الإيحاء بالندب واعطائه الإيقاع المناسب وقد أحدث هذا التكرار نوعا من التوقع، والتنبه، وأوجد قدرا كبيرا من التفصيل..

وفي اللوحة الرابعة يستخدم شاعرنا تقنية (الخطف خلفا)، ويتحدث عن صور الحضارة المشرقة للبصرة قبل دخول الزنج إليها، ليعود بعد ذلك إلى الزمن الحاضر بما يحمله من مآس مروعة:

عرجا صاحبي بالبصرة الزهـ	راء تعريج مدنف ذي سقام
فاسألاها ولا جواب لديها	لسؤال ومن لها بالكلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها	أين أسواقها ذوات الزحام؟
أين فلك فيها وفلك إليها	منشآت في البحر كالأعلام؟
أين تلك القصور والدور فيها	أين ذاك البنيان ذو الإحكام؟
بدلت تلكم القصور تلالا	من رماد ومن تراب ركام
سلط البثق والحريق عليهم	فتداعت أركانها بانهدام
وخلت من حلولها فهي قفر	لا ترى العين بين تلك الأكام
غير أيد وأرجل بائنات	نبذت بينهن أفلاق هام
ووجوه قد رملتها دماء	بأبي تلكم الوجوه الدوامي
وطئت بالهوان والذل قسرا	بعد طول التبجيل والإعظام[1]

فهو يستذكر أصوات أهل هذه المدينة الحبيبة وضجيجهم، وازدحام برها بالأسواق، وبحرها بالسفن العظيمة التي تمخر عبابه جيئة وذهابا، كما يتذكر جمال العمران وابداعه في الدور والقصور.

ثم ينقلب شاعرنا لإظهار الحقيقة المرة بعد دخول الزنج، فقد أحرقوا الأخضر واليابس، ودمروا البيوت والقصور، فغدت خاوية على عروشها، ولم يعد المرء يرى في الطرقات غير الأشلاء والدماء، والوجوه الذليلة المغبرة، بعدما كانت مكرمة مبجلة .. وأكثر في هذه اللوحة من الاستفهام الاستنكاري الذي خرج إلى معاني الاستنكار (أين ضوضاء ذلك الخلق فيها، أين أسواقها ذوات الزحام، أين فلك فيها ..، أين تلك القصور والدور)، لقد برع ابن الرومي في تصوير الشر والموت، والدمار، كما برع في إظهار المفارقة بين (القبح) ممثلا بصاحب الزنج ورجاله المجرمين، و(الجمال) ممثلا بالبصرة ومعالمها الحضارية وسكينة أهلها وطمأنينتهم قبل مباغتة المجرمين الزنج، وعلى هذه المفارقة يقوم مفهوم (المأساوي).

ويختم شاعرنا باللوحة الخامسة، إذ يدعو الأمة العباسية إلى الثأر والانتقام للحضارة والإنسانية التي انتهكت في البصرة، وكان كلامه صادقا كل الصدق، حتى قيل إن دعواته لم تذهب سدى، فقد جهز الموفق العباسي جيشا عظيما لقتال هؤلاء الزنج، وقضى عليهم بعد صراع عنيف ذهب ضحيته آلاف القتلى من الطرفين[2].

[1] ديوان ابن الرومي، 6/ 2379، 2380، البثق: موضع انبثاق الماء من نهر ونحوه والجمع بثوق.

[2] ينظر البداية والنهاية لابن كثير، 11/ 47، 48، وتاريخ العصر العباسي، أمينة بيطار، ص247.

وهكذا "تبدو المأساة ينبوعا لكل تجربة واعية من تجارب الحياة، فحيث يتحرك الفاجع، يكون الموقف الجدي العميق في وجود الإنسان؛ الموقف الذي يجابه الحقيقة في جرأة، ويعيش القيم في أقوى صورها الإنسانية"[1]..

انفروا أيها الكرام خفافا وثقالا إلى العبيد الطغام
صدقوا ظن إخوة أملوكم ورجوكم لنبوة الأيام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم مثل رد الأرواح في الأجسام
لم تقروا العيون منهم بنصر فأقروا عيونهم بانتقام
إن قعدتم عن اللعين فأنتم شركاء اللعين في الآثام
بادروه قبل الروية بالعز م وقبل الإسراج بالإلجام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأد نى وبيعوا انقطاعه بالدوام[2]

ونحس مع الشاعر نوعا من الصدام والعراك، تبديها قسوة الألفاظ المشددة التي اختارها لتنسجم مع حالة الحرب والقتال والصدام التي دعا إليها الشاعر (وبخاصة حرف الدال المشددة، والراء المشددة، واللام المشددة، والطاء المشددة).

لقد كانت هذه القصيدة ملحمة من ملاحم الدمار والخراب والموت، ملحمة مأساوية إنسانية، بكل ما في المأساة من معنى، فقد صور ابن الرومي الفاجعة مجسدة في شخصيات (ذكر صاحب الزنج بقوله الخائن اللعين، والعبيد، وغيرهم من الشخصيات)، وممثلة في أفعال تثير المشاعر المفجعة في نفوس المتلقين. وهذا يقترب من (المأساوي) بمعناه الأرسطي، فأرسطو يؤكد الناحية النفسية للمأساة حين رأى فيها إثارة لشعور الشفقة والخوف، مما يعني تطهير الإنسان من مثل هذين الانفعالين[3].

وحرص الشاعر كما رأينا، على إبراز المفارقة بين عهدين عاشتهما بغداد، أولهما حاضرها الذي آلت إليه بوجهها القاتم ومصابها الفاجع، وما انطوت عليه من تقتيل وتدمير وأسى وحزن، والثاني سابق عهدها، وما كان ينطوي عليه وجهها المشرق من ليالي الأنس وساعات الصفاء وعهود الأمن والاستقرار .. وقد بدا ابن الرومي في قصيدته هذه ذا نزعة إيجابية متفائلة، فقد حزن وبكى، ولكنه دعا –بصوت قوي مجلجل– إلى الثأر والانتقام.

كما بكى الشعراء مدينتهم (بغداد) التي طالما أحبوها وذرفوا الدموع الغزار على مرابعها، بعد أن صارت خرائب بسبب بعض الفتن الداخلية، فتحسروا على جمال قصورها، وعمرانها الذي استحال رمادا بسبب النار التي أتت على كل شيء فيها.وأثرت هذه الحادثة المفجعة في قلوب كثير من الشعراء فقال بعضهم يندبها ويبكيها: (ولم يعرف القائل)

بكيت دما على بغداد لما فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أحرقوا بالنار قسرا ونائحة تنوح على غريق
وصائحة تنادي وا صباحا وباكية لفقدان الشفيق

[1] العرب وتجربة المأساة، صدقي إسماعيل، ص55.
[2] الديوان: 6/ 2381، 2382، عدد أبيات هذه القصيدة (86) بيتا، لم نستطع ذكرها جميعا، لضيق المقام، أسرج الفرس: شد عليه السرج. ألجم الدابة: ألبسها (اللجام)، وهو ما يجعل في فمها من الحديد ومعه السير وغيره.
[3] ينظر: موسوعة المصطلح النقدي، مجموعة من المؤلفين، 1/ 37، والبناء الدرامي للمأساة عند أرسطو، سيد النساج، ص 40.

وحوراء المدامع ذات دل مضمخةالمجاسد بالخلوق
تفر من الحريق إلى انتهاب ووالدها يفر إلى الحريق
وقوم أخرجوا من ظل دنيا متاعهم يباع بكل سوق
ومغترب قريب الدار ملقى بلا رأس بقارعة الطريق
توسط من قتالهم جميعا فما يدرون من أي الفريق
فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق بلا صديق[1]

يصور الشاعر هنا، مأساته مع الموت الذي اختطف من حوله، فرثى الأقارب والأصدقاء، وعبر عما شاهده وعايشه، مركزا على إبراز دائرة الألم والقلق في نفسه.

والقلق الصادر عن مسألة الموت قلق مريع "يهزنا أعنف هزة، ويملأ كياننا كله رعدة هائلة، وقشعريرة ممزقة، مارين بكل أنواع القلق الناشئة عن التفكير في مصائرنا ومستقبلنا وقضاء حوائجنا.. وهذا القلق لا بد أن يشيع في كل إنسان؛ لأنه طابع أصلي في الوجود"[2].

فقد اخترمت المنية أهل بغداد، كبيرهم وصغيرهم، ذكورهم واناثهم، ولم تترك أحدا من شرها فمن حريق يتأوه، وغريق يعاني، وامرأة ثكلى تنوح وتصرخ بأعلى صوتها، وقد هرب الولد من والده، والصديق من صديقه، وكأنه يوم القيامة .. فوجد الشاعر نفسه في دوامة من الحزن والهم والجزع، وقد عبر عن هذا بقوله (بكت عيني على بغداد، فقدت غضارة العيش الأنيق) فصدر عن خلجات قلب حزين، فيه لوعة صادقة وحسرات حرى، فجاءت هذه المقطعة محكمة النسج، قوية التعبير.. أما العاطفة فكانت حارة مشبوبة مفعمة بالحزن والأسى، وبرع الشاعر في التفاصيل واستقصاء الجزئيات.

وتظهر الثقافة الدينية الإسلامية في هذه الأبيات؛ إذ يستعير الشاعر بعض العبارات القرآنية أو معناها كما هو الحال في قوله (فلا ولد يقيم على أبيه، وقد هرب الصديق بلا صديق) وهذا مأخوذ من سورة عبس من قوله تعالى : ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه﴾[3].

وقد أحسن الشاعر الأخذ من القرآن الكريم؛ إذ تأثر بما قرأ، وامتص الفكرة، وعبر عنها تعبيرا جديدا.

–وقد تستدعي حقيقة الموت من الشاعر أن يتأمل في طبيعة الحياة وحال الدنيا، فيكون له من ذلك نظرات وآراء، ولا سيما بعد أن تشبع الشعراء بأفكار ثقافات أغنت معارفهم وعقولهم، إذ نجد –أحيانا– فكر الفلاسفة وعلماء الكلام، وبعض مصطلحاتهم، كالجوهر والعرض والشك واليقين، والروح والجسم، مثل شعر ابن الرومي، الذي يزخر بهذه المصطلحات، كما في قوله مثلا:

أدركوا ثأرهم فذاك لديهم مثل رد الأرواح في الأجسام[4]

وكما في قول الشاعر الأعمى[5]، حين ذكر رمي بغداد بالمنجنيق، فنطق لسانه بهذه الحكمة (هيهات أن يغلب الهوى القدرا):

يا صاحب المنجنيق ما فعلت كفاك؟ لم تبقيا ولم تذرا
كان هواه سوى الذي أمرا هيهات أن يغلب الهوى القدرا[6]

[1] تاريخ الطبري: 8/ 457، كما وردت هذه القطعة في: تاريخ الإسلام للذهبي 13/ 50، وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير: 5/ 439، ورواية البيت الأخير فيه:
فما ولد يقيم على أبيه وقد فر الصديق عن الصديق
[2] الزمان الوجودي، عبد الرحمن بدوي، ص 173.
[3] سورة عبس/ الآية 34.
[4] ديوان ابن الرومي، 6/ 2382.
[5] ذكر المسعودي في مروج الذهب أن اسمه (الشاعر الأعمى المعروف بعلي بن أبي طالب)، مروج الذهب 3/ 377، وهو شاعر مغمور، من شعراء أواخر القرن الثاني، ولم يصلنا سوى اسمه ونسبته وبعض شعره، له شعر في كتاب (شعراء عباسيون منسيون) لإبراهيم النجار، انظر: الجزء الرابع، القسم الثاني، ص 143.
[6] مروج الذهب، 3/ 379، 380.

2- مأساة تفكّك الأواصر الاجتماعية والحضارية:

إن الشاعر العباسي، في هذا النوع من الرثاء قد لمس تفرق الأمة العباسية وتشتت قواها، وضياع مدنها نتيجة لتصارع خلفائها وأمرائها وتنافسهم على السلطة، فهو بهذا يعبر عن عاطفة جماعية، وشعور جماهيري، يحس به كل مواطن تجاه مدينته التي تعرضت لأنواع الإباحة، والهتك، والخراب والدمار وغير ذلك مما تتحسر له النفس، وينفطر لهوله الفؤاد "تكون المأساة حين نعي أن السقوط -مهما يكن بسيطا- هو سقوط الجميع، ففي المأساة لا وجود للضحية والمتفرجين بل الجميع يكونون ضحايا"[1].

ومن أبرز الأحداث السياسية التي تجلت فيها هذه المأساة، الفتنة الكبرى بين الأمين والمأمون (حدثت سنة 197هـ)، وقد بدأت هذه الفتنة بمحاصرة بغداد من قبل طاهر بن الحسين قائد جيوش المأمون، ودام الحصار مدة طويلة تخربت فيها معالم الحضارة في بغداد، وعم الفقر والبؤس جميع سكانها، وكثر العابثون والشذاذ فاغتالوا الأبرياء، ونهبوا الأموال وطاردوا النساء .. ومنيت بغداد بأفدح الخسائر[2].

ومن الشعراء الذين عاصروا تلك الواقعة، الشاعر (عمرو بن عبد الملك العِتْري الورّاق ت 200هـ)، الذي بكى مدينته الحبيبة بغداد، ورثاها بأحرّ المعاني وأصدق العواطف قائلاً:

مَنْ ذا أصابك يا بغداد بالعين	ألم تكوني زماناً قُرّةَ العَينِ
ألم يكن فيك قومٌ كان مسكنهم	وكان قُربُهُمُ زَيناً من الزَّينِ
صاح الغرابُ بهم بالبين فافترقوا	ماذا لقيت بهم من لوعةِ البَينِ!
أستودع الله قوماً ما ذكرتُهم	إلّا تحدّر ماءُ العينِ من عيني
كانوا ففرّقهم دهر وصدّعهم	والدّهر يصدع ما بين الفريقين
كم كان لي مُسْعِدٌ منهم على زمني	كم كان منهم على المعروف من عون[3]

صور شاعرنا هذه المحنة العظيمة، محنة تفرق أهل بغداد بين مؤيد (للأمين) ومؤيد (للمأمون)، وجاء هذا التصوير مشوبا بخلجات وجدانية، وأحاسيس مرهفة تثير الأسى والندم لما حل (ببغداد)، والتحسر على نعيمها، الذي غدا ركاما وخرابا وذكريات ما زالت ترن في ذهن الشاعر وتسكن وجدانه.

وركز الشاعر على إبراز (المفارقة التصويرية) التي كانت شائعة في قصائد رثاء المدن في العصر العباسي، فقد كانوا يأتون بالشيء، ونقيضه في قصائدهم، فيصورون المدينة العباسية في مختلف ميادين ازدهارها ورقي حضارتها، ثم يأتون بنقيض هذه الصور بعد أن تحولت إلى دمار وخراب.

إن المأساوي "يثير فينا عاطفة حزن تهزنا، وتزعزع كياننا"[4] ولا سيما إذا كان الحدث المأساوي مروعا، فعند ذلك "تحدث فينا الكارثة المأساوية أو الهزيمة المأساوية انطباعا مروعا مفعما بالأسى"[5]، وقد تجلى هذا الأسى عن طريق الاستفهام الاستنكاري الذي افتتح به الشاعر قصيدته: (من ذا أصابك يا بغداد بالعين؟)[6]، ثم يحاول الشاعر أن يخفف من حدة هذا الأسى فأتى باستفهام آخر خرج إلى معنى التقرير: (ألم تكوني زمانا قرة العين؟).

---

[1] العرب وتجربة المأساة، صدقي إسماعيل، ص 50.

[2] البداية والنهاية لابن كثير 10/ 258، والكامل في التاريخ، 5/ 500، وتاريخ الطبري 8/ 495، 496.

[3] وردت هذه الأبيات في تاريخ الطبري: 8/ 447، و8/ 501، كما وردت في البداية والنهاية لابن كثير 10/ 259.

[4] أسس علم الجمال الماركسي اللينيني، جماعة من الأساتذة السوفييت، 2/ 100.

[5] المرجع السابق، 2/ 94.

[6] أرجع الشاعر سبب الخطب الذي دها بغداد إلى العين والحسد، وهذا نوع من القول تردد في شعر رثاء المدن والدول، إذ نجد أيضا قطعة لشاعر أندلسي مجهول بكى قرطبة قائلا:

ابك على قرطبة الزين فقد دهتها نظرة العين

أنظرها الدهر بأسلافه ثم تقاضى جملة الدين / البيان المغرب، ابن عذاري المراكشي (ت بعد 712هـ) 3/ 110.

كما عمد الشعراء إلى النقد، وأخذوا يضمنون قصائدهم نقدا لاذعا للأوضاع السياسية والأحوال الاجتماعية المتهاوية بحيث نستطيع أن نقول: "إن خيوط النقد السياسي أو الاجتماعي تشابكت في نسيج هذا الرثاء وتوحدت في لحمتها وسداها؛ إذ يندر أن تأتي قصيدة رثائية لمدينة أو مملكة، خالية من النقد الذي هو صورة من صور تعليل النكبة والخسارة"[1]، يتابع الوراق مصورا حالة الحيرة والضياع التي حلت بالشعب:

لله در زمان كان يجمعنا أين الزمان الذي ولى ومن أين؟
يا من يخرب بغدادا ليعمرها أهلكت نفسك ما بين الطريقين
كانت قلوب جميع الناس واحدة عينا وليس يكون العين كالدين
لما أشتهم فرقتهم فرقا والناس طرا جميعا بين قلبين[2]

فالشاعر يلمّح إلى ضياع هيبة الخلافة في قلوب الناس، كما يشير إلى ذهاب أواصر القربى بين الإخوة بسبب التنافس على المُلك والسلطان، وهنا تكمن ذروة (المأساة)؛ فقد سالت الكثير من الدماء وأُزهِقَت الأنفس في سبيل استقرار المُلك لأحدهما[3].

وتميّز فن رثاء المدن، بصورة عامة، ببعده عن المحسنات البديعية، فالمقام لا يناسبه الزخرف البديعي، وما ورد من المحسّنات في هذه المقطّعة أو غيرها، فقد جاء محمّلاً بالإيحاء والتوتّر لإبراز المعنى وتوضيحه، كالطّباق بين (يخرّب، يعمرها)، (فرقاً، جميعاً)، والمقابلة في قوله (يا من يخرّب بغداداً، ليعمرها)، (كانت قلوب جميع الناس واحدةً، والناس طُرّاً جميعاً بين قلبين).

كما أنّ استخدام الورّاق لهذا التّضاد ولّد حركة تفاعلية تمخّضت عنها تناقضات معنوية أسهمت في إظهار الخبيء في بنية النص (النقد السياسي والاجتماعي).

كما يتجلّى النقد السياسي واضحاً في قول الشاعر الأعمى، في أبيات يذوب لها القلب كمداً، يتجلّى فيها التّوهّج العاطفي الصادق حين يناجي بغداد، ويسميها بأجمل الأسماء والألقاب:

أبغداد، يا دار الملوك، ومُجتنَى صنوف المنى، يا مستقرَّ المنابرِ
ويا جنّة الدنيا، ويا مطلبَ الغنى ومُستنبطَ الأموال عند المتاجر
أبيني لنا: أين الذين عهدتِهم يَحُلّونَ في روضٍ من العيش زاهر؟
فما للملوك الغُرِ من آل هاشمٍ وأشياعهم فيها اكتفوا بالمفاخر
يروحون في سلطانهم وكأنهم يروحون في سلطان بعض العشائر
تخاذل عمّا نالهم كبراؤهم فنالَهم بالكرهِ أيدي الأصاغر
فأقسم لو أنّ الملوكَ تناصروا لذلّت لها خوفاً رقابُ الجبابرِ[4]

إنّه يعزو مأساة خراب بغداد، إلى تفكُّك الأواصر الاجتماعية بين الأشراف والكُبراء من بني العباس، فقد انشغل هؤلاء الملوك بالمفاخِر، وتخاذلوا عن نصرة ولاة العهد المتقاتلين، وقصّروا في دعوتهم إلى لمّ الشمل والاجتماع على كلمة واحدة، فكان ما كان.

[1] الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي، منجد مصطفى بهجت، 322 – 323.
[2] تاريخ الطبري، 8/ 501.
[3] ينظر: البداية والنهاية لابن كثير، 10/ 258، وتاريخ الطبري 8/ 495، 496.
[4] مروج الذهب للمسعودي، 3/ 378 – 379.

وقد تعرّضت (بغداد) التي كانت عاصمة حضارة الإسلام في الشرق، ومنارة العلم، وقبلة الرّواد في كلّ علمٍ وفنّ، تعرضت إلى فتن داخلية متوالية نتيجة الصراع الذي ذكرناه، فنُهِبت وهُتِكَت أعراض أهلها واقتُحِمت دورهم.. ووجد السّفلة والأوباش مناخاً صالحاً ليعيثوا فساداً ودماراً، وقد عبّر الشاعر أبو يعقوب إسحاق الخريمي (ت 214هـ)، عن هذه النكبة في مرثيته الرائعة لبغداد، والتي يقول فيها:

مَن يرَ بغداد والجنودُ بها ... قد ربّقت حولها عساكرها
كتائب الموت تحت ألوية ... أبرح منصورها وناصرها
يعلم أنّ الأقدار واقعة ... وقعاً على ما أحبّ قادرها
فتلك بغداد ما تبنّى من الذّ ... لّة في دورها عصافرها
محفوفةً بالرّدى منطّقة ... بالصّغر محصورة جبابرها
ما بين شط (الفرات) منه إلى ... (دجلة) حيث انتهت معابرها
نار كهادي الشقراء نافرة ... تركض من حولها أشاقرها
يُحرقها ذا، وذاك يهدمها ... ويشتفي بالنّهاب شاطرها
يا هل رأيت الثكلى مولولةً ... في الطُرق تسعى والجهد باهرها
في إثر نعش عليه واحدُها ... في صدره طعنةٌ يساورها
تنظر في وجهه وتهتف بالث ... كل وجاري الدّموع حادرها[1]

نلحظ توظيف الشاعر لعناصر طبيعية مختلفة، صامتة وحيّة، ولعناصر ذهنيّة مجرّدة، في رثاء بغداد، فنذكر من العناصر الطبيعية المتحرّكة (نار كهادي الشقراء نافرة، تركض من حولها..).

ونذكر من الأفكار الذهنيّة المجرّدة التي شخّصها وجسّمها ونقلها من عالم المعنويات إلى عالم المحسوسات: الموت، والأقدار (كتائب الموت، الأقدار واقعة وقعاً ..، محفوفة بالرّدى منطّقة)، فمن خلال الأبيات السابقة تجلّى لنا (موت الجميل) الذي نحبه ونجلّه ونحسّ تجاهه بالانجذاب، ونجد فيه جزءاً من ذواتنا .. وهو هذا الوطن الحبيب إلى النفس، الذي يتمثل بمدينة بغداد التي عاش فيها الشاعر أجمل ذكرياته، فآلت هذه المدينة إلى الدّمار والموت.

ومال الشاعر الخريمي إلى تعليل سبب سقوط (بغداد)، بكثرة الذنوب والمعاصي التي ارتكبها أهلها؛ سالكاً بذلك مسلك (الوعظ والإرشاد):

يا بؤسَ بغدادَ دار مملكة ... دارت على أهلها دوائرها
أمهلها الله ثمّ عاقبها ... حين أحاطت بها كبائرها
بالخسف والقذف والحريق، وبال ... حرب التي أضحت تساورها
كم قد رأينا من المعاصي ببغدا ... دَ فهل ذو الجلال غافرها[2]

ونرى أنّ الشعراء الذين ذكروا الذنوب والمعاصي سبباً لسقوط المدن وخرابها كانوا أقرب إلى الواقع من الشعراء الذين أرجعوا ذلك إلى القضاء، والقدر، والدهر، والزّمان، وذلك لأنّ الإنسان يمكنه أن يقلع عن الذنوب، ويعمل بجد ونشاط لبناء بلده من جديد، أما تعليل السقوط بالقضاء والقدر[3] ففيه تثبيط للهمم وصدٌّها عن العمل البنّاء و الإيجابيّ.

[1] ديوان الخريمي، جمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعيبد، ص 32 – 34.
[2] المصدر السابق ، ص 31.
[3] راجع بعض قصائد رثاء الممالك في الشعر الأندلسي، فقد كثر فيها هذا التعليل.

والشاعر يدرك أنّ هذا الأمر (بين الأمين والمأمون) يمثّل سابقة خطيرة، تشير إلى ضياع هيبة الخلافة في قلوب الناس، كما تشير إلى ذهاب أواصر القربى بين الإخوة:

قلم يزل، والزمان ذو غِيَرٍ يقدح في ملكها أصاغرها
حتّى تساقت كأساً مثمّلةً من فتنةٍ لا يقال عاثِرُها
وافترقت بعد أُلفةٍ شيعاً مقطوعةً بينها أواصرها[1]

اتسم شاعرنا بالدّقة في رسم الصّورة الشعرية، فقد جسّم الفتنة، فجعلها خمراً لذيذة تشربها المدينة المسكينة، وهي لا تدري ما عواقب هذا الإكثار من الشرب، فتثمل وتعاني مصائبَ تترى لا تنتهي.. وقد أراد الشاعر العباسي من تشخيص الأشياء الجامدة، وتجسيم المعاني المجرّدة، أن يُغْدِق عليها صفاته الإنسانية، وغيرها؛ ليعمّق من فداحة المصيبة، ومأساة السقوط.

–ويصل إلى ذروة الشعور بالمأساة عندما يعقد مقارنة بين ماضي بغداد (قبل الفتنة)، وحاضرها:

يا هل رأيت الجِنانَ زاهرةً يروق عين البصير زاهِرها
وهل رأيت القصور شارعةً تكنُّ مثل الدمى مقاصرها
وهل رأيت القرى التي غرس الـ أملاكُ مخضّرةً دساكرها
محفوفةً بالكروم والنخل والرّيـ حان، ما يستقلّ طائرها
فإنها أصبحت خلايا من الـ إنسان قد أُدميت محاجرها
قفراً خلاءً تعوي الكلاب بها ينكر منها الرسومَ زائرُها
وأصبح البؤس ما يفارقها إلفاً لها والسّرور هاجرها[2]

هذا النّص غني بالتضاد، والتضاد "من الوسائل التي تغني النّص الشعري بالتوتّر، والعمق والإثارة، وتقوم هذه البنية على الجدل الذي يعني وجود حالة تناقض وصراع وتقابل بين أطراف الصورة الشعرية. وغالباً ما تكون الثنائيات الضدية هي العنصر الأكثر أهمية بين مكونات النّص الشعري"[3]، ويشكل التضاد عند شعراء رثاء المدن محوراً أساسياً لجلاء المعنى وإثارة العاطفة وبيان حدّة المفارقة، عبر ثنائيات (المقابلة) و(الطباق)، ولم يكن استخدامه لهذا التضاد استخداماً زخرفياً هدفه التجميل، بل كان استخداماً متّشحاً بعاطفة جيّاشة .. والقصيدة في جملتها انفعالات وجدانيّة متأجّجة، صادرة عن نفس متحرّقة متحسّرة، تدرك حقيقة الأخطار.

لقد صوّر تلك المأساة المفجعة في مشاهد تُدمِي القلب، وتفطر الفؤاد حسرةً وجزعاً وألماً، ولذلك فقد كان خراب هذه المدينة (حدثاً مأساويّاً جليلاً) عظيماً.

ويخصص الخريمي آخر (28) بيتاً من هذه (الملحمة المأساوية)، لتصوير (البطل الجليل)، ممثّلاً (بالمأمون) الذي خاض أحداث هذه المأساة، وخرج منتصراً، ولكنّ الفاجعة (والنهاية المأساوية) كانت من نصيب أخيه (الأمين) .. وهنا نجد ملامح كثيرة من (المأساويّ الدرامي) بالمعنى الأرسطي لأنّ ثمة (شخصيات) تخوض غمار (الأحداث) في هذه المأساة، وقد استطاع (الخريمي) أن يثير في نفوس المتلقين الرعب والرأفة وهذا يؤدي إلى (تطهير النفوس) من أدران انفعالاتها ..[4]

[1] ديوان الخريمي، ص 28.
[2] المصدر السابق، ص 29.
[3] بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة، صالح فيصل القصيري، ص 145، عمان، دار مجدلاوي، ط1، 2006م.
[4] ينظر: موسوعة المصطلح النقدي، مجموعة من المؤلفين، 1/ 37، والكوميديا والتراجيديا، ميرشنتوليش، ص، 120.

وممّا يُحمَد للخريمي أنّه لم يتملّق للخليفة المنتصر (المأمون)، بل دعاه إلى شكر ذي العرش على ما أنعم عليه، وأسدى إليه نصائح ثمينة، تعينه في إدارة شؤون البلاد، ودعاه إلى تحقيق العدل وحثّ الناس على العلم، وإلى الرحمة بالشعب المسكين الذي خرج جريحاً منكسراً من هذه الحرب الطاحنة:

خليفة الله في بريته الـ	مأمون منتاشها وجابرها
سمَت إليه آمال أمّته	منقادةً برّها وفاجرها
فاشكر لذي العرش فضلَ نعمته	أوجب فضل المزيد شاكرها
واحذر فداءً لك الرّعية والـ	أجنادُ مأمورها وآمرها
لا تردَن غمرةً بنفسك لا	يصدرُ عنها بالرأي صادرها
عليك ضحضاحها، فلا تلج الغمـ	رة ملتجّة زواخرها
والقصدُ أنّ الطريق ذو شعب	أشأمها وعثها وجائرها
أصبحتَ في أمةٍ أوائلها	قد فارقت هديَها أواخرها
وأنت سرسورها وسائسها	فهل على الحقّ أنت قاسرها
وامدُدْ إلى الناس كفّ مرحمةٍ	تُسدّ منهم بها مفاقرها[1]

الأبيات من مجزوء البسيط، وقد أضفى الخريمي عليها موسيقا مكثّفة ساعدت في تكثيف الحزن، والتعبير عن الأسى، وكان تردّد صوت الهاء مع الألف (ها) ذا قيمة تعبيرية كبيرة، حيث يجعلنا نشعر بأنّ الشاعر كان ينفّس عن نفسه المكلومة بضياع مدينته .. فكان يطلق العنان لصوته عبر هذه الهاء المنتهية بالألف، فيفرّغ خلالهما تلك الشحنة العاطفية الحزينة.

فامتاز شعر الخريمي بالانسجام، فهذا الشاعر، كابن الرومي، ممّن يحسنون اختيار الألفاظ والتراكيب، ومن ثمّ يحسنون الربط بينها وبين المعنى، فتأتي رصينة ناصعة البيان.

وهكذا فقد رثى الخريمي بغداد، وصوّر مأساة الفتنة بين الأمين والمأمون وما جرّته من ويلات على هذه المدينة، معبّراً عن حزن وأسىً عميقين، متأثّراً فعلاً بما حلّ بهذه المدينة التي كانت توصف بأنها (أمّ الدنيا وسيّدة البلاد)[2]، بل وصفها بعض المؤرخين بأنها (مدينة السلام وقبة الإسلام)، ومن محاسن الدنيا في ذلك الزمان[3]، فجاء شعره مشوباً بخلجات وجدانية، وأحاسيس مرهفة .. وعبّر من خلال هذه القصيدة الطويلة التي بلغت (135) بيتاً عن حبّه للوطن أرضاً وقوماً وحضارة، وتحسّر على حالة الضياع والحيرة التي جاءت من التنافس والاقتتال على السلطة.

"إنّ كل إنسان يفقد الوطن الذي نشأ وترعرع فيه ظلماً وعدواناً، لا بدّ أن يحزن لفقده حزناً عظيماً، ولا بدّ أن يستقي عواطفه من معين الوفاء والإخلاص، إن لم يكن لحبه وطنه فلحالة الشقاء والتشرد التي يتعرض لها بعد أن يُقْصَى عنه، ولحالة الضياع والحيرة التي تتلقاه في البلاد التي يحلّها بعد أن يُمزّق شمل قومه ويبدّد جمعهم"[4].

وما أجمل دعاء الخريمي لأرض بغداد الحبيبة:

---

[1] ديوان الخريمي، ص 37، ماء ضحضاح: قليل لا عمق فيه. الغمرة: الماء الكثير، وجاءت هنا بمعنى الشدة والضلالة التي تغمر صاحبها. السرسور: الفطن العالم، والذي يحسن تدبير المال. مرائرها جمع مريرة: حبل شديد الفتل.

[2] معجم البلدان لياقوت الحموي، 1/ 456.

[3] المصدر السابق، 1/ 456، و 1/ 326، وتاريخ بغداد للبغدادي: 22/ 95.

[4] رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي، د. مهجة الباشا، ص 334.

يا ليتَ شعري والدهر ذو دولٍ يُرجَى وأخرى تُخشى بوادرها
هل ترجعنْ أرضُنا كما غَنِيَتْ وقد تناهت بنا مصائرها

وقد استغنى ابن الرومي، والخريمي، كما رأينا، عن المقدمات الطللية، فلا أطلال، ولا غزل ولا نسيب، ولا وصف للطبيعة؛ لأنّ فداحة الخطب، وجلل المصاب، لا يتركان المجال لمثل هذه المقدمات.

ولم تَخْلُ قصيدتا الورّاق والخريمي من النقد الإيجابي البنّاء، الذي يرمي إلى تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية السيّئة، ويدعو إلى استئصال شأفة الفتنة والتّفرق بين أبناء الأمة الواحدة .. كما اتسمت قصيدة الخُريميّنَفَس ملحمي (قصصي) متميّز.

ثالثاً: مأساة العذاب والهوان والذّل:

حين تتعرّض الأمم لكوارث عظيمة، كالاعتداء الخارجي، وترجح كفة هذا العدو الغاشم، تعظم مسؤولية الشعراء في استنهاض هذه الأمم، وتنبيهها إلى ما يمكن أن يحلّ بالصغير والكبير، من ذُلّ وهوان وصَغار.. إن لم يهبّ رجال هذه الأمة المنكوبة لدفع العدوان ودَحرِه.

وفي عصر الشاعر (أبي المظفر الأبيوردي[1]) (ت 507هـ) نجد الانحطاط السياسي الهائل للدولة العباسية، والتفرقة الشاملة بين الشعوب الإسلامية، والتناحر بين الزعماء على الحكم، ونجد الشعراء يبكون مدن الشام التي كانت تسقط في أيدي الصليبيين، ولم يبكوا مدينة كما بكوا بيت المقدس، ونقرأ في المصادر: لما استولى الفرنجة (الصليبيون) على بيت المقدس (22 شعبان 492هـ) قتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً كما يذكر ابن الأثير، وكان أمراء المسلمين في ذلك الحين مختلفين متنابذين[2]، فنظم الأبيوردي في ذلك قصيدة، هي الوحيدة عن القدس في ديوانه، إذ يفصل بين هذه القصيدة ووفاته ثلاثة عشر عاماً، لم يقل قصيدة أخرى عنها أو عن الحوادث التي تلت سقوطها، ولكنها كانت علامة فارقة للشاعر، بصدقها وجمالها وفيها يرثي القدس والمسجد الأقصى، ويصوّر مبلغ التنكيل الذي حلّ بأهل المدينة على أيديهم:

مَزجنا دماءً بالدّموع السّواجمِ فلم يبقَ مِنّا عَرصَةٌ لِلْمَراجِمِ
وشرُّ سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُهُ إذا الحرب شُبّت نارُها بالصّوارمِ
فإيّهاً بني الإسلام إنّ وراءكم وقائعَ يُلحِقنَ الذّرا بالمناسمِ
أتهويمةً في ظلّ أمنٍ وغبطةٍ وعيشٍ كنُوّار الخميلة ناعمِ
وكيف تنام العينُ مِلءَ جُفونِها على هفواتٍ أيقظت كلّ نائمِ
وإخوانكم بالشّام يُضحي مَقيلُهُم ظُهورَ المذاكي أو بطون القشاعمِ
تسومُهُم الرومُ الهوانَ وأنتمُ تجرّونَ ذيل الخفضِ فِعلَ المُسالمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحت ومِن دُمىً تواري حياءً حُسنها بالمعاصمِ
بحيثُ السّيوفُ البيضُ مُحمرّةُ الظّبا وسُمْرُ العوالي دامياتُاللّهاذمِ
وبين اختلاسِ الطّعن والضّرب وقفةٌ تظلّ لها الولدان شيبَ القوادم
وتلك حروبٌ مَن يَغِب عن غمارها لِيَسْلَمَ يَقْرَعْ بعدها سنّ نادمِ

[1] الأبيوردي: محمد بن أبي العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق الأموي المعاوي، أبو المظفر، شاعر عالي الطبقة، مؤرخ، عالم بالأدب، ولد في أبيورد في خراسان ومات في أصبهان كهلا، قسم ديوان شعره إلى أقسام: منها العراقيات ومنها النجديات، وغير ذلك، ومن كتبه: تاريخ أبيورد، المختلف والمؤتلف في الأنساب، طبقات العلم، ديوان شعره، انظر شذرات الذهب لابن العماد 6/ 30، وفيات الأعيان 4/ 444، وبغية الوعاة للسيوطي 1/ 40.

[2] انظر : البداية والنهاية، 12/ 192، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم 17/ 47. كما وردت هذه الحادثة بالتفصيل في: النجوم الزاهرة: 5/ 147-150.

سللنَ بأيدي المشركين قواضباً سَتُغمَدُ منهم في الطّلى والجماجِمِ[1]

لقد كانت هذه القصيدة، بحق، مأسلة إنسانية رهيبة، تجلّى فيها سلطان الموت والقتل والتنكيل، رهيباً مفزعاً وقد استطاع الشاعر أن يضعنا في أجواء تلك المأساة المؤلمة، " فالنّدم الناشئ عن انكسار شعب أمام عدوّه – وهو صورة صارخة لندم المأساة – لا يحمل الأسف على خوض المعركة بمقدار ما يحمل الحنين إلى الشجاعة والبطولة والذكاء وغيرها من الفضائل التي يفتقدها هذا الشعب"[2].

كما استثار الغيرة والحمية، فهو يعبّر عن عاطفة جماعية وشعور جماهيري، يشعر به كل مسلم إزاء ما حلّ بالمسجد الأقصى والقدس من أنواع الإباحة والهَتكَ والخراب والدّمار والإذلال، وتُعدُّ هذه القصيدة تسجيلاً تاريخياً لهمجيّة المحتلّ، فقد كانت مدينة مسالمة ليس فيها شيء من عناصر القوة، ولا تملك في وجه المحتل الذي يمثل ذروة القوة آنذاك إلّا الدمع ومعاصم الحرائر، فهو أمام ضدّين اثنين: القوة، والضعف، ومن خلالهما يصوّر المفارقة المؤلمة بين قوّة المحتل الغازي الغاشم، وضعف أهل القدس العزّل والعرب والمسلمين بعامة.

وقد استطاع الأبيوردي من خلال هذه الأبيات، أن يضع الأمة الإسلامية تحت الأمر الواقع، فقرّعهم، ووصفهم بالتقاعس والتخاذل؛ لأنهم لم ينصروا إخوانهم في الشام، ولم يهبّوا لنجدتهم، كما بلغ الألم بشاعرنا مبلغاً عظيماً عندما كشف لهذه الأمة عن مستقبل أيامها، وما سينتج عنه من إذلال وصغار لأجيالهم القادمة إن لم يتداركوا أمرهم:

"فحتّى الكوارث الضخمة في حياة الفرد والجماعة، لا تكون فاجعة لمجرّد أنها تزلزل أمن الحياة أو تقذف بالضحايا، بل يُطلّ وجهُ المأساة، في هذه التجارب جميعاً، حين نتمثّل فيها المصير الإنساني وقد تلوّثت فيه القيم التي نؤمن بها، فالفاجع في الظلم أو الجوع هو سقوط العدالة أو إهانة الكرامة الإنسانية"[3].

فقد اتخذت هذه الأبيات طابع التنبيه والاستنهاض، ويتعجب الشاعر كيف يمكن أن ينام هؤلاء ملء عيونهم، وغير بعيد عنهم تجري فظائع الأمور التي تقع على رؤوس إخوانهم من أهل الشام، فلا يجدون وقتاً للنوم في بيوتهم، فجلّ أوقاتهم على صهوات الخيول يحاربون، أو تُكْتَب لهم الشهادة فتخطفهم نسور الجوّ.

وما أجمل المفارقة التي صوّرها الشاعر بقوله: (تسومهم الرّوم الهوان وأنتم تجرّون ذيل الخفض فِعْلَ المسالِمِ) فالتّضاد قائم بين حالة أهل الشام التي بلغت من الذّل والهوان كلّ مَبْلَغ، وحال بقية العرب الذين شبّههم بالشّخص الآمن المطمئن ناعم البال، وكنّى عن ذلك بقوله: (تجرّون ذيل الخَفض) كما جسّم دَعة العيش، وهو أمر ذهني مجرّد، فجعله ثوباً فضفاضاً يُلبس ويُجرّ ..

وأدّى الاستفهام الذي خرج إلى معنى الاستنكار (أتهويمةً في ظلّ أمن وغبطة، وكيف تنام العين ملءَ جفونها، أترضى صناديدُ الأعاريب بالأذى) وظيفته على اكمل وجه.

لئن وصف شاعرنا في القسم الأول من هذه القصيدة، الذّل والهوان وألوان التنكيل والتعذيب التي لحقت بأهل القدس، والدماء التي سالت، والدموع التي فاضت كالأمطار، فقد دعا في القسم الثاني بقوة إلى الحرب، وأخذ الثأر من المستعمر:

أرى أمّتي لا يُشرِعونَ إلى العِدا رماحَهمُ والدّينُ واهي الدّعائمِ

ويَجْتنِبونَ النارَ خوفاً من الرّدى ولا يحسبون العارَ ضربةَ لازِمِ

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويُغضي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجِمِ

فليتَهُمُ إذ لم يَذُودوا حَميّةً عن الدّين ضنّوا غَيرَةً بالمحارِمِ

[1] ديوان الأبيوردي، تحقيق عمر الأسعد، 2/ 156 – 157.عرصة: بقعة واسعة بين الدور ليس فيها بناء. تهويم الرجل: نومه نوما خفيفا.المذاكي: الخيل التي أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان. الظبة: حد السيف والسنان وما أشبه ذلك.اللهذم: كل شيء قاطع من سنان أو سيف أو ناب.

[2] العرب وتجربة المأساة، صدقي إسماعيل، ص 51.

[3] نفسه، ص 21.

وإن زهدوا في الأجر إذ حَمِسَ الوغى فهلّا أتوهُ رغبةً في الغنائمِ
لئن أذعنتْ تلك الخياشيمُ للبُرى فلا عطسوا إلّا بأجدعَ راغمِ
دعوناكم والحربُ ترنو مُلحّةً إلينا بألحاظ النّسورِ القشاعمِ
تراقبُ فينا غارةً عربيّةً تُطيل عليها الرُّوم عضَّ الأباهمِ
فإن أنتمُ لم تغضبوا بعدَ هذه رمينا إلى أعدائنا بالجرائمِ[1]

لقد كانت نكبة المسجد الأقصى، بلا ريب، حدثاً جللاً هزّ كيان الأبيوردي، فانطلق لسانه بأقوى العبارات والألفاظ الدّالة على الغضب والاحتجاج، (الحرب، النسور، القشاعم، تغضبوا، الصّوارم، وقائع، السيوف، مُحمّرة الظّبا، غارة عربيّة، ..)، وقد أطلق (ماكس شيلر) على الإنسان اسم (الكائن المُحتجّ) لأنه يستطيع –دون جميع الكائنات– أن يقول: لا أمام الواقع[2] ففي نهاية القصيدة يبلغ الألم مبلغاً عظيماً بالشاعر، فيكشف لهم عن مستقبل أيامهم وما سيلاقونه من إذلال في عهد أبنائهم الوارثين للخنوع إن قبلوا باحتلال الأعداء لبلادهم. وأنهى قصيدته على نحوٍ موجعٍ، فنساء العرب الأحرار سيصبحن سبايا في أيدي الأعداء إن تخاذل العرب المسلمون عن الدفاع عنهنّ، فكأنّه يصرخ بأعلى صوته: اغضبوا لإخوانكم في الشام وانهضوا، فالأمر لا يحتمل السكوت.

فالفن المأساويّ " يولّد شعوراً أخلاقيّاً عميقاً وموقفاً نقدياً ثورياً، ويدفع إلى التفكير المسؤول في مصير البشرية"[3]، وتنطوي المأساة "على أعمق مظاهر الحنق والرفض"[4].

إنّ شعر الأبيوردي ترجمة باطنية لما يعتمل في ذاته، وتجربته الشعرية نابعة من حالة ذهنيّة تتملّكه، ولا يولد الشعر إلّا نتيجة تعرّض الشاعر لمؤثّر قوي، يهزّ وجدانه هزّاً لا يلين، فينتج عنه انفعال عاطفي .. وقد صدرت قصيدته هذه عن لحظة شعورية واحدة أخضعتها لإحساس مهيمن واحد منذ مطلعها حتى نهايتها.

ويرى د. إسماعيل مروة أنّ رائعته هذه تذكّرنا بسقوط القدس وتعيد إلينا الأمل بتحريرها وإن طال الزمن، وتعتمد المعاني الإنسانية الرّفيعة[5].

ونستطيع القول إنّ هذه القصيدة تمثّل أنموذجاً مهماً من نماذج (المأساويّ) في بكاء المدن في الشعر العباسي.

أهم السمات الأسلوبية في شعر رثاء المدن في العصر العباسي

- **تماسك النسق البنائي، والدقة والوضوح:**

–ارتفع هؤلاء الشعراء باللغة إلى مستوى الحدث الجلل الذي أصاب نفس الراثي، فكان الرثاء كما قال بعض النقاد (شاجي الأقاويل، مبكي المعاني، مثيرا للتباريح)[6].

وتتزاحم ألفاظ الحزن، والتحرق والألم في معظم القصائد والمقطعات التي مرت معنا، ونذكر بعض النماذج:

(الدموع، لهف نفسي، بكت عيني، القلوب، الثكلى، نعش، مزجنا دماء بالدموع السواجم، وكم من دماء قد أبيحت،..)

[1] ديوان الأبيوردي، تحقيق عمر الأسعد، 2/ 156، 157. الخياشم: جمع خيشوم وهو أقصى الأنف. والبرى: جمع البرة وهي حلقة تجعل في أنف البعير أو الأسير وجاءت هنا بمعنى حثالة القوم. الأجدع: الذي قطع أنفه. راغم: ذليل. حمس الوغى: اشتد. القشعم من البشر أو من النسور: المسن. أم قشعم: تقال للحرب، والمنية، والداهية.

[2] ينظر: القيم في فلسفة ماكس شيلر، د. وفاء عبد الحليم محمود، ص 271.

[3] علم الجمال، د. نايف بلوز، ص 103.

[4] العرب وتجربة المأساة، صدقي إسماعيل،، ص 13.

[5] نبه على أهمية هذه القصيدة وقيمتها د. إسماعيل مروة في مقال له: في مجلة المعرفة، بعنوان: الأبيوردي ومرثية القدس: مدينة ضائعة وشاعر مضيع) تنظر الصفحات 426 – 435، وذكر أن زيغردهونكه قد استشهدت بالأبيوردي، للتدليل على همجية الأوربيين وحملاتهم العدوانية، في كتابها: التوجه الأوربي إلى العرب والإسلام / حقيقة قادمة وقدر محتوم، إذ نقول "فلا عجب أن يكون هناك حتى يومنا هذا وصمة لا تمحى على الجبين الأوربي في الوعي والإدراك العربي، وقد ترك أبو المظفر الأبيوردي العنان لخياله في هذه الأبيات والألم يعتصره لانتصار الغزاة على شعبه" /ص 74/ التوجه الأوربي إلى العرب والإسلام، زيغردهونكه.

[6] ينظر منهاج البلغاء، القرطاجني: 356، 357، 358.

وتعبر هذه الألفاظ والعبارات عن عواطف مشبوبة، وتوهج حسي، وانفعال قوي عميق، وتحرق وتلهف يرتفعان بمستوى اللغة إلى مستوى الأشياء التي يتحدث عنها الشاعر.

–كما سبك الشاعر العباسي ألفاظه في بناء محكم قوي، وتأتي قوة إبداعه وعظمة تأثيره من الأسلوب السهل، والوضوح والدقة، والصدق في التعبير عن المشاعر والأفكار، وتماسك النسق البنائي.

–وركز معظمهم على أساليب النداء، للتنبيه واستنهاض الهمم.

والاستفهام الذي خرج إلى معنى الاستنكار، للتعبير عن الاحتجاج، والرفض، والألم.

- **التشخيص والتجسيم والتجسيد:**

كان التشخيص إحدى الأدوات الفنية في قصيدة رثاء المدن، فلقد بث شعراء رثاء المدن الروح في المعاني المجردة، والأشياء الجامدة، وتعاملوا معها حية تحس وتتألم، وتسمع وتفهم، وغير ذلك من صفات الكائن الحي، فلقد شخصوا مدينة بغداد وخاطبوها وكأنها تفهم وتحس وتتألم وتحزن:

(من ذا أصابك يا بغداد بالعين[1]) (حتى تساقت (المقصود بغداد) كأسا..[2])

–كما جسموا الأفكار والخواطر والعواطف الملموسة، وقربوا المعنويات إلى عالم المحسوسات، كما فعل (الأبيوردي) في قوله:

(وأنتم تجرون ذيل الخفض فعل المسالم[3]). جسم خفض العيش، ودعته وبلهنيته، وهو أمر مجرد، فجعله شيئا ماديا يجر.

ويقول الأبيوردي أيضا من القصيدة نفسها (الحرب ترنو ملحة إلينا بألحاظ النسور القشاعم) فقد جسم الحرب وجعل لها ألحاظا حادة كالنسور.

أراد الشاعر العباسي من تشخيص الأشياء الجامدة، وتجسيم المعاني المجردة، أن يغرق عليها صفاته الإنسانية وغيرها، ليعمق من فداحة المصيبة، ومأساة السقوط..

ونقع على كثير من التشبيهات المعبرة عن هذه المأساة، فقد شبه (الخريمي) بغداد قبل الفتنة بالعروس، وبجنة الخلد:

قالوا ولم يلعب الزمان ببغ	داد وتعثر بها عواثرها
إذ هي مثل العروس باطنها،	مشوق للفتى وظاهرها
جنة خلد ودار مغبطة	قل من النائبات واترها
درت خلوف الدنيا لساكنها	وقل معسورها وعاسرها[4]

(إذ هي مثل العروس) تشبيه تام الأركان، فبغداد قبل فتنة الأمين والمأمون، كانت مثل العروس البهية بزينتها التامة، جميلة المنظر، والمخبر، تشوق كل من رآها، ومن المعلوم أن التشبيه فن "يتضمن الدلالة عل مشاركة أمر لآخر في المعنى"[5]، وهذه المشاركة تمنح في سياق الكلام والتصوير خصوصيات الأوصاف لغيرها، فتتفق فيها المتباينات، وتتقارب في السمات والهيئات، وتقوم على أساس المشابهة، والمماثلة المبدعة والمعجبة بين الأشياء، فيتنبه الإدراك عند نسجها إلى صور الالتقاء ومعالم الاتفاق الخفية أو الظاهرة بين الأشياء حسية كانت أم عقلية[6].

[1] تاريخ الطبري، 8/ 447.
[2] ديوان الخريمي، ص: 28.
[3] ديوان الأبيوردي، 2/ 156.
[4] ديوان الخريمي، القصيدة 24، ص 27.
[5] الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، المجلد الثاني، ج4، ص16.
[6] ينظر: دروس في البلاغة العربية، الأزهر الزناد، ص15.

(جنة الخلد) تشبيه بليغ، فغياب الأداة جعل المشبه هو عين المشبه به، لأنه ألغى كل مساحة بينهما، وذلك يكسب التشبيه قوة وروعة وتأثيرا.

- **الخطابية في شعر رثاء المدن:**

كانت الخطابية سمةً طغت على الشعر العربي القديم في أغلب نماذجه، وكان شعر رثاء المدن أحوج من غيره إلى تلك الخطابية التي كان يقصد بها الوصول إلى الوجدان الجماهيري والتأثير عليه، وذلك لأنَّ الموضوع يتعلَّق بضياع شعبٍ بأرضه، وثقافته، وكلِّ رموزه، ولابدَّ أن يصل الشاعر إلى وجدان هذا الشعب ليبصِّره بحقيقة ما يجري، وليقنعه بخطورة الموقف، ويحاول أن يبعث روح الجهاد وحمية الدفاع عن الأرض، والدين، والوجود بصفةٍ عامة.[1]

فالخطابية هنا من بواعث التوفيق، وقد وُجدت في قصيدة الأبيوردي التي اتسمت بالفخامة وبالقوة والجزالة، إذْ يبدو متأثِّرًا بأسلوب شعر الجاهليين، ولكنَّه، في الوقت نفسه، رقيق الشعور، مرهف الإحساس:

أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذى ويُغْضي على ذُلٍّ كُماةُ الأعاجمِ
فليتهم إذْ لم يذودوا حَمِيّةً عن الدين ضَنّوا غيرةً بالمحارمِ
لئن أذعنت تلك الخياشيمُ لِلَّبُرى فلا عطسوا إلّا بأجدعَ راغمِ
دعوناكم والحربُ تدنو مُلِحّةً إلينا بألحاظ النّسور القشاعمِ[2]

نَلحظ النبرة الخطابية التي تؤدي دورًا مهمًا في التحريض والتنبيه، كما أنَّ طول الجُمَل ملائمٌ لنَفَسِ الشاعر. إذ يستغرقُ ذلك في الحزن والألم والتفكُّر والتأمُّل.. وأسهم التضعيف في (حميَّة، ملحَّة،..) في تفخيم الحدث وتهويله.. فضلًا عن متانة السبك وقوة الجَرْس.

- **الاتجاه إلى الشعبية في شعر المقطعات:**

الشعبية مصطلح يُطلَقُ للتعبير عن التغيير الذي طرأ على اتجاهات الشعر العباسي، ولاسيما منذ مطلع القرن الثاني الهجري، هذا التغيير طال معنى الشعر ومبناه، وكان يهدف إلى الاقتراب من بيئة العامة. والمنحى الشعبي في القصيدة العباسية كان أحد نتائج الصراع الذي احتدم بين دعاة التقليد وأنصار التجديد. ولم تقتصر الشعبية على غرض دون الآخر، فقد لامَسَتْ بتأثيرها الأغراض الشعرية كافة من مديحٍ وغزلٍ وهجاءٍ وزهد، ومالَتْ إلى البساطة في تناول المعاني والاقتراب من ذهنية العامة، واختيار المفردات والصور والألفاظ الشعبية القريبة من حياتها اللغوية والاجتماعية.[3]

ونجد هذا الاتجاه واضحًا في مقطَّعات الشاعر (عمرو الورَّاق)، إثر تهدُّم مدينة بغداد فوق أبنائها، فراحوا ضحايا جريمةٍ لم يرتكبوها. كما ضحَّى جنود الفريقين (الأمين والمأمون) بأنفسهم من أجل لا شيء، وقد عبَّر الورَّاق عن هذه المآسي تعبيرًا صادقًا فيه روح شعبية ظاهرة إذ يقول:

ذهَبَتْ بَهجَةُ بَغْدادَ وكانت ذاتَ بَهْجَهْ
فَلَها في كلِّ يَوْمٍ رَجَّةٌ مِنْ بَعْدِ رَجَّهْ
ضَجَّتِ الأرضُ إلى الـ لَّهِ مِنَ المُنْكَرِ ضَجَّه
أيّها المقتولُ ما أنـ تَ على دين المَحَجّهْ

[1] ينظر: رثاء المدن في الشعر الأندلسي، عبد الله محمد الزيات، ص116.
[2] ديوان الأبيوري، 156/2.
[3] ينظر: شعراء النزعة الشعبية في العصر العباسي، أحمد الحسين، ص9، ص10.

ليتَ شعري ما الذي نـ لتَ وقد أدلجتَ دلْجَهْ
أ إلى الفِرْدوس وُجِّهـ تَ أم النارِ تُوَجَّهْ؟[1]

يسيطر الحزن في هذه القصيدة، ويبدو أنَّ الباعث على هذا الحزن لم يكن دمار بغداد فحسب، بل التساؤل عن جدوى هذا الاقتتال بين الإخوة والأقارب، وعن (مصير) هذا الذي يرمي نفسه في غمار هذه المعارك الطاحنة، " بل الحسرة على مصير الإنسان في هذه الحياة الفانية، فهو لم يلجأ إلى الثناء على الميت كما يفعل معظم الشعراء، ولم يبك عليه وينح ويندب، بل لجأ إلى التفكير في رحلته إلى الموت، وهو برثائه لأصدقائه، وتخليده لذكراهم يُنَبِّئُ عن رثائه لنفسه وتخليده لها في مواجهة الموت الذي يتهدَّده ويتربَّصُ به"[2]

وهذه الأبيات لم تكن مستودعًا لأحاسيس الشاعر وموقفه من الموت والحياة فحسب، بل عمد إلى إيداعها ما اكتسبه من ثقافةٍ دينيةٍ واطِّلاع على آي القرآن الكريم (إذا رجَّت الأرض رجًّا[3]). وعلى الرغم من (فكرة الموت والمصير) الموجودة في المقطَّعة، إلَّا أنها بُنيَت بناءً شعبيًّا بسيطًا، سواءٌ من حيث المعنى أو المبنى (مجزوء الخفيف).

وفي مقطَّعةٍ أخرى يصور لنا الورَّاق رميَ بغداد بالمجانيقِ من الفريقَينِ كليهما من غير أن يكترثا بإصابة أهدافٍ معينة، بل كانت غايتهما إيقاع الدمار والخراب بمدينة بغداد، دون نظرٍ إلى ما يصيب شعبَها مِن قَتْلٍ وتعذيبٍ:

يا رُماةَ المنجنيقِ كُلُّكُم غَيرُ شَفيقَ
ما تُبالونَ صَدِيقاً كان أو غَيْرَ صديق
ويلكم تَدْرُونَ ما تَرْمُونَ مُرّارَ الطريق؟
رُبَّ خُود ذاتِ دَلٍّ وهي كالغُصْنِ الوَريقِ
أُخْرِجَتْ مِنْ جَوْفِ دُنيا ها ومن عَيْشٍ أنيقِ
لم تجدْ من ذاك بُدّاً أُبْرِزَتْ يومَ الحَريقِ[4]

تتجلى الشعبية في اختيار الألفاظ البسيطة المفهومة، والتراكيب السهلة، والمعاني القريبة من أفهام العامة، فضلا عن اختيار الأوزان المجزوءة (مجزوء الخفيف)[5].

وظائف شعر رثاء المدن:

- **الحث على النهوض والبناء واصلاح ما فسد:**

تعدُّ (المأساة) من أقدم الينابيع التي استقى منها الكائن البشري حوافز العمل والفكر. فالنظرة التاريخية المألوفة تربط دائمًا بين حسِّ المأساة ونشوء الحضارة. تبدأ الحضارة منذ أن يعي الإنسان مكانته في العالم، فيتبين الفجوات الفاجعة في وجوده، كالموت والألم والخطيئة، ويدرك في الوقت نفسه أنَّه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يتمرَّد على الواقع، ويتدخَّل في صنع مصيره[6].

[1] تاريخ الطبري، 470/8.
[2] الشعر في قرطبة، د. محمد سعيد محمد، ص240.
[3] سورة الواقعة، الآية 4
[4] تاريخ الطبري، 8/ 446.
[5] و من السمات الأسلوبية التي ظهرت في شعر رثاء المدن في العصر العباسي : التضاد ، و التكرار (و قد درست هاتان السمتان في أثناء التعليق على الشواهد السابقة).
[6] العرب وتجربة المأساة، صدقي إسماعيل، ص13، ص14.

وفي كلِّ يقظةٍ حضاريَّةٍ نوعٌ من الرفض يقف به الأفراد أو الجماعات أمام ما يفرضه الواقع من مظاهر التردِّي. وقد أشار (شبنغلر) إلى أنَّ روح الحضارة تستيقظ في مرحلة من الانهيار. فتنطلق هذه الروح في تصميم دون أن تأخذ شكلًا معيَّنًا إلَّا أن تنتشل نفسها من الواقع[1]. ويقول د. نايف بلّوز: " إنَّ الفن المأساوي يولِّدُ شعورًا أخلاقيًا عميقًا وموقفًا نقديًّا ثوريًّا، ويدفع إلى التفكير المسؤول في مصير البشرية"[2]. وتوحي أشعار رثاء المدن، التي درسناها، بكثيرٍ من معاني استنهاض الهمم، وتغيير الواقع السيئ، كما رأينا في قصيدتي ابن الرومي والأبيوري، فقد عبَّر الشعراء في هذه القصائد عن عاطفةٍ جماعية، وشعورٍ جماهيريٍّ، يحسُّ به كلُّ إنسانٍ تجاه مدينته التي لحقها الدمار والخراب والهَتْكُ والإباحة والإذلالُ، وغير ذلك.

- **إثارة التفكير والتأمُّل:**

الفنّ يثير فينا تفكيرًا وتأمُّلًا طويلًا، والفنُّ " مصدر انسجامٍ وتلاؤمٍ بين عناصر مختلفة، يقيم توازنًا بين مختلف نواحي العقل، ويلائم بين الطبيعة والحرية، بين العقل والشعور، بين الوعي واللاوعي، بين المادة والروح، وأحيانًا يأتي بحلٍّ لعقدة، وجوابٍ لمسألة.. ولا يكتفي بأن يكون بَعثًا للماضي او حالةً رجعية، بل يحاول وصل الماضي بالحاضر والتوفيق بينهما، كما أنَّه مصدر إيحاء للمستقبل وينبوع خَلْقٍ وإلهام"[3].

وقد أثارت فينا قصائد (رثاء المدن) التأمّل في قضية اتجاه الإنسان العربي ومَيله إلى حبِّ الوطن والتمسك به، وجَعْلِهِ من وطنه إنسانًا حيًّا يحبُّه ويجلُّه ويبادله مشاعر الحب والولاء، ويصفه ويتغنَّى بحسنه وجماله، ويرثيه إذا فقده أو نال منه أعداؤه. كما أثارت التأمل في قضية (الحياة والموت)، والمآسي التي يجرُّها تفكك الأواصر الاجتماعية والأسرية.

- **الوظيفة الجمالية:**

وتنشأ هذه الوظيفة عن تناغم مكوّنات النسق البنائي، والفكري، وتآلفها، من أفكار وألفاظ وتراكيب وإيقاع وصور حقيقيّة ومجازية. وقد تحققت هذه الوظيفة في معظم القصائد والمقطعات التي مرت معنا[4].

نتائج البحث:

❖ تجلَّت قيمة (المأساوي) واضحةً في شعر رثاء المدن في العصر العبَّاسيّ؛ فقد عبَّر هؤلاء الشعراء عن النكبات التي حَلَّتْ بمدنهم: بغداد، والبصرة، والقدس... تعبيرًا صادقًا، يفيضُ بنغماتِ الأسى والتفجُّع والتحسُّر.

❖ إنَّ (المأساويّ) الذي تجلَّى في شعر رثاء المدن في العصر العباسي يختلف قليلًا عن (المأساويّ) بمعناه الأرسطي. فهذا الأخير يصوِّر الفاجعة مجسَّدةً في شخصيَّات، وممثَّلةً في أفعالٍ تثير المشاعر المُفْجِعة في نفوس المتلقِّين. وقد وُجِد هذا النوع الأرسطي في بعض القصائد، كالملحمة الرائعة التي رثى فيها (ابن الرومي) البصرةَ وأهلَها، و(الملحمة القصصية) التي رثى فيها الخريمي بغداد. ولكنَّ (المأساوي) الذي تجلَّى في شعر رثاء المدن، بصورةٍ عامَّة، مأساويٌّ غنائيٌّ، يعبِّر عن المشاعر ويصفها ويتحدَّث عنها ولا يشخِّصها.

❖ إنَّ (موتَ الجميل) الذي نحبُّه ونجلُّه، وعذابَ الإنسانِ وهلاكه، ومجابهة القُبْح والتفاهة.. كلُّ هذه المعاني يتجلَّى من خلالها مفهوم المأساوي في شعر رثاء المدن في العصر العباسي.

---

[1] ينظر: تدهور الحضارة الغربية، أسوالداشبنغلر، ج1، ص78،ص87، ص649.

[2] علم الجمال، ص103.

[3] النقد الجمالي، روز غريب، ص67، و الصواب : وجواب عن مسألة .

[4] و من الوظائف أيضا : التنفيس و التطهير ، راجع التعليق على قصيدتي الخريمي و ابن الرومي .

❖ لقد عكسَ الشاعر العباسي شعورَه بالمأساة فنيًّا، من خلال نماذج رثاء المدن التي صوَّرَ فيها مشاهد الموت والخراب والدَّمار، مستعينًا بالصور والمفارقات التي تكشف عن الجوانب المُفْجِعة والمروِّعة لهذه المأساة وبالتعابير الموحية بعِظَم هذه المأساة وجلالها. فثمَّة تداخُل، كما ذكرنا في مقدمة البحث. بين الجليل والمأساوي.

❖ عمد الشعراء إلى النقد، وأخذوا يضمّنون قصائدهم نقدًا لاذعًا للأوضاع السياسية والأحوال الاجتماعية المتهاوية.

❖ جعل معظم الشعراء صورة المرأة العربية المُسْتَرَقَّة المُباحة المعذَّبة من أهم نماذج المآسي التي يستدرُّون بها عطف المُتلقِّين، ويستصرخونَ بها لنجدة العرب المسلمين في المدن المنكوبة.

❖ امتاز شعراء المدن، وبخاصَّة ابن الرومي، والخريمي، والأبيوردي بنَفَسِهم الطويل، واستقصائهم الدقيق، وإلمامهم بالجزئيَّات.

❖ استغنى الشعراء في هذا النوع من الشعر عن المقدِّمات الطللية وغيرها من أنواع المقدِّمات، فلا أطلالَ، ولا غزل أو نسيب، ولا وصف للطبيعة، لأنَّ فداحة الخطب وجَلَل المصاب لا يتركان المجال لمثلِ هذه المقدِّمات. ومن اللافت للنظر طول القصائد، وقَصْرُها على موضوعٍ واحد هو رثاء المدن، ونشعرُ بنَفَسٍ ملحميٍّ قصصيٍّ في بعضها، كقصيدة الخريمي، أمَّا المقطَّعات فكانت قليلة.

❖ جاءت القصائد في رثاء المدن، في عمومها، مُحكمةَ النَّسْج، قوية التعبير، بكائية تظهر فيها الحسرة والتوجُّع على حال الأمَّة، مع نزعة إيجابية واضحة لتغيير الواقع السيّئ، وهي في معظمها قصائد طويلة مستقلة الغرض، أمَّا المقطَّعات فكانت أقلّ، واتَّسمت بالطابع الشعبي، وبالبساطة في التعبير، فكانت القصائد أجود من الناحية الفنية.

❖ ركَّز معظم شعراء رثاء المدن في العصر العباسي على أساليب النداء، للتنبيه، واستنهاض الهمم، كما ركَّزوا على الاستفهام الذي خرج إلى معنى الاستنكار، للتعبير عن الاحتجاج والرفض والألَم.

❖ كان التشخيص إحدى الأدوات الفنية في قصيدة رثاء المدن، فلقد بَثَّ شعراء رثاء المدن الروح في المعاني المجرَّدة، والأشياء الجامدة، وتعاملوا معها حيَّةً تحسُّ وتتألَّم، تسمع وتفهم، كما جسَّموا المعاني الذهنية المجرَّدة ليعمِّقوا من فداحة المصيبة ومأساة السقوط.

❖ مما يلفت انتباهنا، ميل الشاعر الخريمي إلى الأسلوب القصصي الملحمي في رثائه بغداد. وتعطينا هذه القصة / الملحمة صورةً عن الحياة السياسية في العصر العباسي، وتدلُّ بشكل كبير على تطوُّرٍ في المعاني والأسلوب.

❖ استعمل شعراء رثاء المدن الاقتباس من القرآن الكريم، والتضمين من شعر الأقدمين على نحوٍ قليل.

❖ الفن المأساوي يولِّد شعورًا أخلاقيًّا عميقًا وموقفًا نقديًّا ثوريًّا، ويدفع إلى التفكير المسؤول في مصير البشرية، وتنطوي المأساة على أعمق مظاهر الحِنْق والرفض.

❖ من أهم وظائف شعر (رثاء المدن): الحثُّ على النهوض والبناء وإصلاح ما فَسَد، وإثارة التفكير والتأمل، والوظيفة الجمالية.

التمويل:

هذا البحث ممول من جامعة دمشق وفق رقم التمويل(501100020595).

المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

1. الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين الخطيب القزويني (ت739هـ)، شرح وتحقيق محمد عبد المنعم خفاجي، ط3، دار الجيل، بيروت، 1414هـ، 1993م.
2. البداية والنهاية: أبو الفداء (ابن كثير) الدمشقي (ت 774هـ)، تحقيق علي شيري، ط1، دار إحياء التراث العربي، 1408هـ – 1988م.
3. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: جلال الدين السيوطي (ت 911هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، لبنان – صيدا، د.ت.
4. البيان المغرب في أخبار أهل الأندلس والمغرب: ابن عذاري المراكشي (توفي حوالي 695هـ)، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان، و إ. ليفي بروفنسال وإحسان عباس، ط3، دار الثقافة، بيروت، 1983م.
5. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين أبو عبد الله الذهبي (ت 748هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1413هـ – 1993م.
6. تاريخ بغداد: أبو بكر (الخطيب البغدادي)، (ت 463هـ)، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ.
7. تاريخ الطبري أو تاريخ الرسل والملوك: أبو جعفر الطبري (ت 310هـ)، ط2، دار التراث، بيروت، 1387هـ.
8. حياة الحيوان الكبرى: أبو البقاء الدميري (ت 808هـ)، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1424هـ.
9. ديوان الأبيوردي: أبو المظفر محمد بن أحمد بن إسحاق(ت 507هـ) ، تحقيق د. عمر الأسعد، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1407هـ – 1987م.
10. ديوان الخُريمي: أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قوهي (ت 214هـ)، جمعه وحققه علي جواد الطاهر ومحمد جبار المعَيبد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.
11. ديوان ابن الرومي: أبو الحسن علي بن عباس بن جريج (ت 283هـ) ، تحقيق د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981م.
12. شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب: ابن العماد الحنبلي (ت 1089هـ)، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1406هـ – 1986م.
13. الكامل في التاريخ: أبو الحسن عز الدين (ابن الأثير) (ت 630هـ)، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت، 1417هـ – 1997م.
14. مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن المسعودي (ت 956هـ)، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي، دار القلم، بيروت، 1408هـ – 1989م.
15. معجم البلدان: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الرومي الحموي (ت 626هـ)، ط2، دار صادر، بيروت، 1995م.
16. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: أبو الفرج الجوزي (ت 597هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ – 1992م.
17. منهاج البلغاء وسراج الأدباء: أبو الحسن حازم القرطاجني (ت 684هـ)، تحقيق: محمد الحبيب ابن خوجة، ط3، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1986م.
18. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: أبو المحاسن يوسف بن تغري بُردي الأتابكي (ت874هـ)، قدم له وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ – 1992م.
19. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: أبو العباس شمس الدين (ابن خلكان) البرمكي الإربلي (ت 681هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت.

ثانياً المراجع:

1. أبو البقاء الرندي شاعر رثاء الأندلس: د. محمد رضوان الداية، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1976م.
2. اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري: د. محمد مصطفى هدارة، د. ط، دار المعارف، مصر، 1963م.
3. الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين: منجد مصطفى بهجت، ط1، بيروت، 1986م.
4. أسس علم الجمال الماركسي اللينيني: جماعة من الأساتذة السوفييت، تعريب الدكتور فؤاد المرعي ويوسف حلاق، ط2، دار الفارابي ودار الجماهير، بيروت، 1978م.
5. البناء الدرامي للمأساة عند أرسطو: د. سيد حامد النساج، مكتبة غريب، د. ت.
6. بنية القصيدة في شعر عز الدين المناصرة: صالح فيصل القصيري، ط1، دار مجدلاوي، عمان، 2006م.
7. تاريخ العصر العباسي: أمينة بيطار، مطابع مؤسسة الوحدة، 1401هـ - 1981م.
8. تدهور الحضارة الغربية:أسوالداشبنغلر، ترجمة أحمد الشيباني، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.
9. التوجه الأوربي إلى العرب والإسلام:زيغردهونكه، ترجمة د. هاني الصالح، ط1، مؤسسة الإيمان، دار الرشيد، دمشق، 1998م.
10. الجمال والجلال دراسة في المقولات الجمالية: د. فؤاد المرعي، ط1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، 1991م.
11. خصائص الحروف العربية ومعانيها: حسن عباس، د. ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998م،
12. دروس في البلاغة العربية: الأزهر الزناد، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1992م.
13. الرثاء: د. شوقي ضيف، سلسلة فنون الأدب العربي / الفن الرثائي (2)، ط 3، دار المعارف، القاهرة، د. ت.
14. رثاء المدن في الشعر الأندلسي: عبد الله محمد الزيات، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، 1990م.
15. رثاء المدن والممالك في الشعر الأندلسي: د. مهجة الباشا، ط1، شراع للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، 2003م.
16. الزمان الوجودي: عبد الرحمن بدوي، ط2، مكتبة النهضة المصرية، مصر، 1955م.
17. شعراء عباسيون منسيون: إبراهيم النجار، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1997م.
18. شعراء النزعة الشعبية في العصر العباسي: أحمد الحسين، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2006م.
19. الشعر في قرطبة في منتصف القرن الهجري الرابع إلى منتصف القرن الخامس: د. محمد سعيد محمد، المجمع الثقافي، أبو ظبي – الإمارات العربية المتحدة، 1424هـ - 2003م.
20. الشعر والشعراء في العصر العباسي: د. مصطفى الشكعة، ط6، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م.
21. ظهر الإسلام: أحمد أمين، القاهرة، 1945م.
22. العرب وتجربة المأساة: صدقي إسماعيل، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2003م.
23. علاقات الفن الجمالية بالواقع: ن. غ تشيرنيشفسكي، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، 1983م.
24. علم الجمال: د. نايف بلوز، ط3، جامعة دمشق، د. ت.
25. في الأدب العباسي / الرؤية والفن: د. عز الدين إسماعيل، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975م.
26. القيم في فلسفة ماكس شلر: د. وفاء عبد الحليم محمود، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2005م.

27. الكوميديا والتراجيديا: مولوينميرشنتوكليفوردوليش، ترجمة د. علي أحمد محمود، سلسلة عالم المعرفة (18) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979م.

28. المدخل إلى المأساة (التراجيديا) والفلسفة المأسوية: د. أنطوان معلوف، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 2009م.

29. النقد الجمالي وأثره في النقد العربي: روز غريب، دار العلم للملايين، بيروت، 1952م.

المجلات والدوريات:

1. الأبيوردي ومرثية القدس: مدينة ضائعة وشاعر مضيع، د. إسماعيل مروة، مجلة المعرفة، العدد 544، السنة 47، كانون الثاني، 2009م.
2. أزمة حيادية الأدب في زمن الحرب، سركوت حسين، (مقال)، مجلة الإنساني (مجلة تصدر عن المركز الإقليمي للإعلام)، 5 نيسان، 2022، العدد/ 54.

الموسوعات:

1. موسوعة المصطلح النقدي، مجموعة من المؤلفين، ترجمة د. عبد الواحد لؤلؤة، ط2، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1983م.

الرسائل الجامعية والمخطوطات:

1. بكاء الأوطان في قصيدة (رثاء بغداد) للخريمي (2016م) ، سهام صغيري (رسالة ماجستير) ، الجزائر، جامعة محمد خيضر بسكرة .
2. القيم الجمالية في الشعر العربي الحديث (1950 – 1975م)، سعد الدين كليب (أطروحة دكتوراه)، جامعة حلب، 1989م.